رأي الإسلام في التحالف مع الغرب(*)

الأخ عصام العطار

يختلف الناس في أمر المحالفات التي تمت مع الغرب ، والمحالفات المشابهة التي ما تزال الدعوة إليها قائمة .. هل هي في مصلحتنا ، أم في غير هذه المصلحة ؟ وهل نقبلها أو نرفضها ؟ ..

ويُكْثِر الناسُ القول في هذا الموضوع ، فيقبل فكرة التحالف من يقبل ، ويرفضها من يرفض ، وتختلف الأســس التي بنى عليها كل من الطرفين أو تتفق ، وتتباين المقاييس أو تلتقي ..

وأكثر من تكلم في الموضوع دعاة القومية والوطنية ، ورجال الأحزاب السياسية .. وبقي أن يقــول الإســلام كلمته يعلنها المسلمون ويتمسكون بها ، ولا يمكّنون غيرهم من أن يقبض على زمامهم ، ويتحكم في مصيرهم .. فما هو رأي الإسلام ؟ ..

قبل أن نحاول الكشف عن هذا الرأي ، نحب أن نقدم بديهة غفل عنها أكثر المسلمين : هي أن مقياســنا الــذي نقيس به ، ومناط الحكم عندنا في كل أمر ، هو الإسلام نفسه ، فبالإسلام نقبل ، وبالإسلام نــرفض ، وبالإســلام نزن ، لا بأي شيء غير أبدا .. وعلى هذا الأساس نحاول تجلية رأي الإسلام في التحالف مع الرأسمالية الغربية (أي في الانضواء الرسمي تحت رايتها) .

إنّ الإسلام دين كامل ، عقيدة شاملة في الوجود ، ونظام خالد للحياة ، فهو بهذا كلِّه مستقل عــن الرأسماليــة الغربية استقلاله عن الشيوعية الشرقية ، له مُثُلُه المخالفة مثلهما ، ونظمه المباينة نظمهما ، وإرادته المناهضة إرادتهما ، فلا يمكن أن يلتقي مع واحدة منهما التقاء أصيلاً ، فضلاً عن الفناء فيها ، لتحقيق مثلها ، أو الدفاع عن مــصالحها ، أو خدمة منافعها .. وإذن فهو (بطبيعته) يأبى على المسلمين أن يفنوا في الغرب أو الشرق ، وأن يسيروا تحــت رايــة الرأسمالية أو الشيوعية ، ويرفض ما يعرض عليهم من التحالف مع الرأسمالية الغربية رفضاً أصيلاً ، ينبع مــن طبيعتــه ذاتها ، فليس فيه مجال لتبدل الآراء ، وتقلّب الأهواء ..

ثم إنّ المعسكر الغربي ينطوي من بغض الإسلام على مثل ما ينطوي عليه المعسكر الشرقي ، وقد شنّا على الإسلام حرباً فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية ، وعملا على استئصاله وما يزالان ، الشيوعيون في بلادهــم وحيث تبلغ دعايتهم ، والغربيون في أوطانهم وحيث تصل أيديهم ، وما يزال المسلمون تدمى جراحهم من طعنــات

من يطلبون محالفتهم ، وتئن قلوبهم من ظلمهم ، ويلبسون على أيديهم أردية الموت والذل والعار ، فكيف يقبلون أن يكونوا معهم على أنفسهم ، وعلى حريتهم وكرامتهم ، وعلى عقيدتهم وحياتهم أيضا ؟ .

هنا يبرز قول من يقول : إننا لا نرفض الانضمام إلى المعسكر الغربي ، إلاّ لأن الغرب عادانا وآذانا واســتعبدنا ، وأعان علينا الصهيونيين في فلسطين وغير فلسطين .. ولو أنه غيّر موقفه هذا ، وأصلح الأمور معنا ، لكنا نقاتــل في صفه ، ونسير تحت رايته .. ويُؤَمِّن على هذا القول كثيرون ! ..

ونحن مع اعتقادنا بأن الاستسلام لفكرة إمكان تغيير الغرب موقفه منا ، وإصلاحه ما أفسد معنا ، هو –في الوقت الحاضر على الأقل– وهمٌ يجب ألا نخدع به أنفسنا ونغش غيرنا ، وباطل يجب أن يمحوه من أذهاننا واقــع الغــرب الفكري والعملي على السواء .. نحن مع هذا الاعتقاد نقول : إنّ إصلاح الغرب ما أفسد معنا ، لا يكفي لنكون معه، يستخدمنا في مآربه ، وفي التمكين لباطله .. لأننا لا نقيس بالمقياس القومي أو الوطني الضيق ، بل نقــيس بالمقيــاس الإسلامي الذي يستعلي على الحدود والقيود ، ويأبى للمسلم أن يكون عوناً على باطل ، أو درعاً لظالم ، أو ســنداً لاتجاه لا يرضاه ..

هل معنى ذلك –كما يظن بعضهم– أن نرفض الانضمام إلى المعسكر الغربي لنبقى هكذا على ضعفنا وتأخرنا .. حتى إذا وقعت الحرب استولى هذا المعسكر على بلادنا واستخدمنا –رغماً عنا– ولم نظفر بشيء ؟! ..

كلا ، لأن الإسلام دين إيجابي لا يكتفي بالموقف السلبي مما لا يتلاءم معه ، بل يستلزم العمل على توطيد كيانــه الخاص ، وحياطته ، وبالجهاد لسيادة رسالته ، فهو يرفض الخضوع للرأسمالية والشيوعية ، ليجمع المــسلمين علــى أهدافهم المتميّزة ، وطريقهم المستقل .

لا بد لنا إذن من أن نوحّد صفوفنا ، وندعم كياننا ، لنحبط المؤامرات المختلفة علينا ، ونقطع الشباك المحيطة بنا ، ونردّ طمع الطامعين عنا ..

ولكنّ أعداءنا الذين يكرهون أن نتوحد يقولون : كيف يمكن أن تكون هذه الوحدة سبباً من أســباب الوقايــة والحرية ، وها هي ذي الدول الإسلاميّة قد ارتبط بعضها مع الغرب ، حتى لقد غدا اتحادنا قيداً لنا ، وارتباطــاً مــع أعدائنا ..

في الجواب على هذا القول تلوح لنا حقيقة مفجعة هي أن ثمة تبايناً في البلاد الإسلاميّة بين الإسلام والحكــم .. فليس الإسلام هو الذي يحكم في سوريا والعراق ومصر وباكستان وغيرها .. وليس هو بالتالي الذي ارتبط في بعض هذه البلاد بالغرب ، بل الذي ارتبط هو هذه الحكومات التي لا تمثل الإسلام ، ولا تحكم به ، ولا تعبّــر عــن إرادة المسلمين .. ولو كان الإسلام هو الذي يحكم لما كان ارتباطٌ بعجلة الغرب ..

هذه حقيقة تفرض علينا أن نقرن السعي إلى الوحدة بالجهاد المتواصل في كل بلد إسلامي للوصول بالإســـلام إلى الحكم .. فإذا هو حكَم التقت البلاد المتفرقة والدول المختلفة في دولة واحدة وافرة القوة مستقلة الاتجاه هي (دولـــة الإسلام) التي يجب أن نقيمها من جديد .

حلم جميل ! .. هذا ما يقال لنا ! ..

إلاّ أننا لا نراه حلماً ، بل نراه من وراء الحاضر واقعاً مجسما ..

إنه إرادة الإسلام لا بد أن نحققها ولو اعترضت دونها مطامع الاستعمار ، ومآرب التبشير ، وضلالات الدعوات، ومنافع الزعامات ..

ولكنهم لا يبصرون إلاّ الحاضر وحده فلا يرون (دولة الإسلام) ولا يشاهدون إلاّ البناء القائم الآن ..

إنهم يسجلون التاريخ ولا يصنعون التاريخ .

أما نحن فلا نسجل بل نصنع ، لا نخضع للحاضر بل نتمرد عليه لنبلغ المستقبل .. المستقبل الذي لا يراه غيرنا لأنه كامن في أنفسنا ، قد يسمونه حلماً ، ولكننا سنحوّل بالإيمان والجهاد الحلم إلى واقع ، وسيرونه شاخصاً أمـــامهم إن شاء الله ..

حركة الزمن

عندما ندعو إلى التميّز عن المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي والسيرِ إلى الدولة الإسلاميّة كعملين متكـــاملين يجب النهوض بهما ، ويمكن النجاح فيهما ، يتهمنا بعضهم بالخيالية والبعد عن الواقع !

إننا ندعو هؤلاء إلى الرجوع إلى الماضي ، وإلى الإحساس بحركة الزمن ومتابعة سير التاريخ ، ليستـــشرفوا مـــن المستقبل ما نستشرف ..

أما إذا حبسوا أنفسهم في الحاضر وحده ، فإنهم لن يروا إلاّ تفكك العالم الإسلاميّ ، واضطراره إلى الخضوع لمـــا يُملى عليه .. ولن يقدروا على رؤية الدولة الإسلاميّة من وراء جدر الحاضر التي أقاموها بأنفسهم في وجـــوههم ، إذ الزمن لا يعرف الحواجز ، ولا يقبل ثبات الأشياء على حال واحدة ..

ليرجعوا إلى منشأ الدولة الإسلاميّة ذاتها قبل أربعة عشر قرنا ..

لقد بدأ الإسلام رجلاً واحداً هو محمد رسول الله ﷺ ، تسدّ عليه طريقه قريش التي تحدى عقائـــدها وعاداتهـــا ومصالحها ، ومن وراء قريش العرب ، ومن وراء العرب الدنيا ..

وتحرك الزمن أقل من نصف قرن ، فإذا الدين الجديد يغلب على قريش وعلى العـــرب ، ويـــدفع الإمبراطوريـــة الفارسية بيدٍ والرومانية بأخرى ، ليقيم دولته على الأرض

أين البداية من النهاية ؟

ولكن بذور النهاية كانت موجودة في البداية ، وإنما أتاح لها الزمن فرصة النمو والإثمار ..

أمريكا ، زعيمة المعسكر الغربي .. ماذا كانت قبل أقل من قرنين ؟ ..

مستعمرة (إنكليزية) ، لا سلطان لها على نفسها ، فضلاً عن غيرها .. والآن .. هي إحدى دولتين تتقاسمان النفوذ في الدنيا ، وتتحكمان في مستقبل البشر على الأرض ..

والشيوعية .. ماذا كانت الشيوعية ؟ ..

لقد مات مؤسسها كارل ماركس شريداً في إنكلترا سنة (١٨٨٣م) وهي الآن كما يرون ..

ليرجعوا إذن إلى الماضي ، وليحاولوا الإحساس بحركة الزمن ، ومراقبة سير التاريخ ، ليروا كيف يخـــدم الـــزمن بحركته الذين يؤمنون بهدفهم ، ويتبينون طريقهم ، ويجاهدون ، ويقدمون التضحيات .. وكيف يحتضن الـــدعوات ، ويزيل العقبات ، ويصنع المعجزات ..

أما نحن .. فسنمضي في الدعوة إلى التميّز عن المعسكرين ، والسير إلى الدولة الإسلاميّة ، يَعْمُرُ قلوبنا الـــيقين ، ويضيء دربنا الفكر ، ويذلل مصاعبنا الجهاد ، ويمدنا الماضي بالثقة في المستقبل ، ثم .. ثم إنّ هذا أمر يمليه الإســـلام فلا مفر منه بصرف النظر عن النتائج ..

بعض واجبات الطليعة المؤمنة

من واجبات الطليعة المؤمنة في كل بلد إسلامي :

- أن تسارع في نطاق البلد الموجودة فيه إلى التعارف والتعاون على استبانة الطريق والوصول إلى الهدف .

o أن تميّز الإسلام عن غيره من الدعوات ليتبين أبناؤه أنه شيء آخر غير الرأسماليـــة والاشـــتراكية والـــدعوات العصبية .. فلا يكون ولاؤهم إلاّ له ، والتفافهم إلاّ حوله ، وعملهم إلاّ من أجله ..

o أن تتعارف في سائر العالم الإسلاميّ ، وتلتقي لرسم خطة إسلامية شاملة موحدة بعيدة المدى ، للعمل بهـــا ، وحصر الجهد فيها .. متبادلة العون الفكري والعملي ، الأدبي والمادي على السواء ..

o أن تعمل –ما وسعها العمل– على نشر العربية لأمرين :

أولهما : أن يتصل كل مسلم مباشرة بمنبع دينه –كتاب الله وسنة رسوله– وبما استخرج منهما الأئمة الأعـــلام ، وبذلك يتخلص من الضلالات التي ألصقت بالإسلام وما هي بإسلام ، ويتقارب المـــسلمون ، ويتوحـــد فهمهـــم ورأيهم ، بالاتصال بمصدر دينهم ، والرجوع إليه فيما يأخذون ويتركون .

ثانيهما : أن تتجاوب حياتهم ، ويمتزج شعورهم ، وتتفاعل أفكارهم ، ولا يكمل ذلك إلاّ في حدود لغة واحدة .

o ثم يجب أن نعمل ليكون الإسلام محرك الشعب وأمل الشعب .. لا ندعوه إلاّ به ، ولا نسير به إلاّ على نهجه ، ولا نجعله يحلم إلاّ بإقامة دولته ..

(*) كتبتْ هذه الكلمة قبل ربع قرن ، ونشرتها لجنة مسجد الجامعة السورية لتعبِّر بهـــا عـــن موقـــف الطلائـــع الإسلامية من الأحلاف الغربية المطروحة في ذلك الحين .. وما تزال هذه الكلمة تعبِّر في جوهرها الأصلي وخطهـــا الأساسي عن رأي الطلائع الإسلامية في هذا الوقت .. ونحن نعيد نشرها الآن للتذكرة ، ولبيـــان أصـــالة الموقـــف الإسلامي ، وانسجامه مع نفسه ، واستمراريته على الزمن في هذا العصر الموضوع الخطير